صديقي لوقا

(1)

لديَّ صديقٌ جديرٌ بأن يكون الأحلى والأكثر حياءً في العالم، يحملُ اسمًا هشًا عريقًا، هو (لوقا)، وعمره وسيط نوعًا ما، أربعون سنة. وهو قصير القامة، نحيف إلى حدٍّ ما، وله شاربٌ خفيفٌ، وشعر رأسه أخفُّ. ولأن إبصاره ليس على ما يُرام، فإنه يضع على عينيه نظارة صغيرة مستديرة، لا إطار لها.

وهو يتوخى ألا يزعج أحدًا، فتجده يلتزم، على الدوام، جانب الطريق؛ وبدلًا من أن يقول (اسمح لي)، يفضِّلُ أن ينسلَّ بجنبه، فإن لم يجد فراغًا مناسبًا يسمح له بالمرور، فإن لوقا ينتظر متحليًا بالصبر حتى يتحرك ما يسدُّ عليه الطريق من تلقاء نفسه، سواء كان حيًا، أو جمادًا، عاقلًا أو غير عاقل. وتزعجه الكلاب والقطط الضالة، فيحرص على تفاديها باستمرار بأن ينتقل من جانب إلى الجانب الآخر في الطريق.

ويتحدث لوقا بصوت رقيق للغاية، غير ملحوظ ولا مسموع، لدرجة يصعب معها تبيُّنُ ما إذا كان يتكلم، أساسًا. ولم يحدث أن قاطع أحدًا أبدًا، في حين أنه ليعجز عن إكمال كلمتين دون أن يقاطعه أحد. ولم يكن يبدو عليه الانزعاج من ذلك، إذ أنه كان يبدو سعيدًا في واقع الأمر لتمكنه من النطق بهاتين الكلمتين.

وكان صديقي لوقا متزوجًا منذ سنوات من امرأةٍ نحيفة القوام، غضوبٍ، وعصبية. وفضلًا عن ما لها من صوت زاعق لا يُطاق، يشي برئتين قويتين، وأنف مرسوم بدقة، ولسان كلسان أفعى، فإنها ذات مزاج خارج عن السيطرة، ولها شخصية مروِّض أسود. ولك أن تتعجب حين تعلم أن لوقا قد أفلح في أن يُرزق منها بطفل يحمل لقب الأم، اسمه (خوان مانويل).

إنه طفلٌ طويل القامة، أشقرُ، ذكيٌّ، دائم الارتياب، ومتهكم، وفيه تطرُّفٌ؛ وليس صحيحًا تمامًا أنه لا يطيع إلا والدته فقط. والحقيقة هي أنه يتفق معها دائمًا على أن لوقا ليس لديه الكثير ليقدمه للدنيا، فاختارا أن يتجاهلا آراءه القليلة التي نادرًا ما ينجح في التعبير عنها.

ولوقا هو الأقدم والأقل أهمية بين موظفي شركة كئيبة تعمل باستيراد الملابس، مقرُّها مبنىً معتمٌ ذو أرضيات سوداء اللون، يقع في شارع (السينا)، ويُطلقُ على مالكِها، الذي أعرفه شخصيًا، اسمُ (دون أكويرونتيدو)، وإن كنت لا أعلم إن كان هذا هو اسمه الأول أو لقبه، وله شارب يوحي بالشراسة، ورأس صلعاء، وصوته مُدوِّيً، وفيه عنفٌ وجشع. ويذهب صديقي لوقا إلى العمل مرتديًا ملابسًا سوداء اللون، عبارة عن بذلة قديمة جدًا، تلمع من شدة قِدمِها.

ولا يمتلك لوقا غير قميص واحد، ارتداه لأول مرة في يوم زواجه، له طوق رقبة بلاستيكي عتيق؛ وليس لديه إلا ربطة عنق واحدة بالية وزلِقة حتى أنها تبدو كما لو كانت رباط حذاء. ولم يكن لوقا، على العكس من زملائه،

يطيق رؤية نظرات الاستنكار في عيني (دون أكويرونتيدو)، فلا يجرؤ على القيام بعمله دون أن يرتدي السترة، التي كان حريصًا على بقائها بحالة جيدة، فيضع على كُمَّيها غطاءً واقيًا رمادي اللون.

وكان راتبه متدنيًا على نحو يدعو للسخرية، ومع ذلك فهو مواظب على العمل بالمكتب كل يوم، ويعمل ثلاث أو أربع ساعات إضافية، فقد كانت تكليفات (دون أكويرونتيدو) له ضخمة، لدرجة أن ساعات العمل الاعتيادية لا تكفي لإنجازها. والآن، وعقب تخفيض (دون أكويرونتيدو) لراتبه مرة أخرى، قررت زوجة لوقا عدم إلحاق (خوان مانويل) بمدرسة ثانوية حكومية، واختارت أن تسجل اسمه في مؤسسة مكلفة للغاية، في منطقة بيلجرانو.

ونظرًا للتكاليف الباهظة التي ينطوي عليها هذا الأمرُ، توقف لوقا عن شراء صحيفته، بل وصلت تضحيتُه إلى حد أكبر، فلم يعد يشترى مجلة (المختار)، وهما المطبوعتان المفضلتان له. وكان آخر مقال تيسر له أن يقرأه في هذه المجلة يشرحُ كيف ينبغي على الأزواج إخضاع شخصيتهم الطاغية من أجل إتاحة المجال لتحقيق رغبات بقية أفراد الأسرة.

(2)

وعلى أي حال، فثمة جانب واحد لافت للنظر في لوقا. إنه سلوكه بمجرد أن يستقلَّ حافلة، وإليكم ما يحدث على وجه العموم:

إنه يطلب بطاقة ركوب، ثم يبدأ في البحث عن نقوده ببطء، ممسكًا بباب الحافلة بيد واحدة للتأكد من أن السائق لا يزال بانتظاره، غير متأكد مما ينبغي أن يفعله، فلوقا غير متعجل، وعليَّ أن أقولَ إن نفاد صبر السائق يمنحه قدرًا من المتعة. ثم لا يلبث أن يقدم للسائق ثمن التذكرة مستخدمًا أكبر عدد ممكن من العملات المعدنية الصغيرة، يقدمها على مرَّات، بقيم متفاوتة، ودفعات غير منتظمة. ولسبب ما، ينزعجُ السائق، الذي يُضطرُّ اضطرارًا إلى إجراء عملية حسابية معقدة، منصرفًا عن الانتباه إلى السيارات الأخرى، وأضواء إشارات المرور، وعن الركاب الآخرين الذين يدخلون إلى الحافلة أو يخرجون منها، بل عن قيادة الحافلة ذاتها.

ويُفاقمُ لوقا المشكلة بتضمينه عملية الدفع عملة معدنية قديمة، من براجواي، يحتفظ بها لهذا الغرض، ويتم إرجاعُها إليه دائمًا. وفي العادة، فإن الأخطاء في الحساب تقع بهذه الطريقة، ويترتب عليها جدل، فيبدأ لوقا، بأسلوب هادئ ولكن حازم، يدافع عن حقوقه، مستخدمًا حججًا متناقضة، يستحيل معها فهم ما يحاول توضيحه بالفعل. وفي نهاية الأمر، فإن السائق، الذي ظل طول الوقت متمسكًا بآخر حدٍّ لقواه العقلية، وفي فعل استسلامي، يختار أن يطيح بالعملات المعدنية، وربما كان في ذلك ما يقمع رغبته في الإطاحة بلوقا ذاته، أو – في الواقع – أن يطيح بنفسه.

وقد اعتاد لوقا، في فصل الشتاء، أن يغادر بيته وقد ترك النوافذ مفتوحة على مصراعيها؛ وكان هو نفسه أول من يعاني نتيجة لذلك، إذ أصيب

بسعال مزمن يُجبره على البقاء مستيقظًا على مدى ليالٍ كاملة. وفي فصل الصيف، يغلقُ لوقا نافذته، مانعًا أي شخص من إسدال ستارة تقيه الشمسَ، حتى انتهى به ذلك إلى إصابته أكثر من مرة بحروق من الدرجة الأولى.

ولأن رئتيه ضعيفتان، فإنه ممنوع من التدخين، الذي يكرهه في الواقع. ومع ذلك، فقد حدث ذات مرة أنه لم يستطع، بمجرد دخوله إلى حافلة، مقاومة إغراء إشعال لفافةٍ رخيصة ثقيلة، تكفلت بسدِّ قصبته الهوائية وجعلته يسعل. ولما غادر الحافلة، أطفأ اللفافة، وفي نيته استخدامها في رحلة تالية.

(3)

إن لوقا شخصٌ ضئيل، كسول، جدير بالازدراء، ولم يهتم أبدًا بالرياضة. لكنه، ما إن يأتي مساء السبت يقوم بتشغيل مذياعه المحمول، رافعًا درجة صوته، ليتابع من خلاله مباراة في الملاكمة. وهو يكرّسُ أيام الآحاد لكرة القدم، مُعذِّبًا بقية ركاب الحافلة بصوت البث الصاخب.

والمعروف أن المقعد الخلفي لخمسة أفراد، غير أن لوقا، بحجمه الصغير جدًا، يجلس فيه على نحوٍ لا يتيح المجال ليجلس فيه إلا أربعة، أو حتى ثلاثة أفراد. وإذا حدث وكان يجلس في هذا المقعد أربعة أشخاص بالفعل، وكان لوقا واقفًا في الحافلة، فإنه يطلب الإذن بالجلوس، في لهجة ساخرة ومتهورة، ويبادر بالجلوس، عاملًا على احتلال مساحة أكبر. وتحقيقًا لهذه

الغاية، فإنه يضع يديه في جيبيه، فيظل المرفقان مسلطين إلى ضلوع جاريه.

وللوقا قدرات كثيرة ومتنوعة. فإذا اضطُرَّ إلى السفر واقفًا، فإنه يتعمدُ الاحتفاظَ بسترته مفتوحة الأزرار، ويعمل على ضبط وضعه، بحيث تصل الحافة السفلية للسترة إلى وجوه أو عيون المسافرين الجالسين. فإن كان بينهم من يقرأ، فإنه يمثل فريسة سهلة للوقا، فيراقبه عن قربٍ، ويجعل رأسه قريبة من الضوء، فيمنع وصوله إلى كتاب الضحية، ومن حين لآخر، يُبعدُ رأسه، كما لو أن ما حدث كان من قبيل المصادفة، فيسارع قارئ الكتاب إلى مطالعة كلمة أو كلمتين، قبل أن يعود رأس لوقا ليحجب الضوء.

ويعرف صديقي لوقا الأوقات التي تمتلئ فيها الحافلة بالركاب، وهي مناسبات يحلو له فيها أن يلتهم شطيرة سُجُقٍّ، ومعها زجاجة نبيذ أحمر. ويحلو له أن يتمشى بطول الحافلة صائحًا بصوتٍ عالٍ: عفوًا. بينما فتات الخبز مع خيوط من السجق لا تزال بين أسنانه، وقد وجه فمه إلى أنوف غيره من الركَّاب.

وإذا تمكن لوقا من شغل المقعد الأمامي فإنه لا يتخلى عنه أبدًا لأي إنسان. لكنه، إن وجد نفسه جالسًا في أحد مقاعد الصفوف الأخيرة، فإنه ما إن يلمح امرأة وعلى ذراعيها طفل تصعد إلى الحافلة، أو شخصًا ضعيفًا مسنًا يصعد على متنها، يسارع إلى الوقوف، ويصيح في الراكب الجالس

في الصف الأمامي، ليترك لها أو له مقعده. وقد اعتاد أن يوجه، فيما بعد، بفصاحته المؤثرة على الدوام، ملاحظات عتاب لأولئك الذين لم يتنازلوا عن مقاعدهم، فلا يلبث بعضهم، وقد شعر بالخجل الشديد، أن يغادروا الحافلة في المحطة التالية. وعلى الفور، يحتل لوقا مكانه.

(4)

ويغادر صديقي لوقا الحافلة وقد اعتدل مزاجُه للغاية، يمشي على مهلٍ متوجهًا إلى بيته، متحاشيًا أي شخص يقابله. ولما كان من غير المسموح له أن يحمل مفتاحًا لبيته، يكون عليه أن يدقَّ الجرس. فإن كان ثمة شخص موجودًا بالبيت، فمن النادر أن يرفض فتح الباب له. ولكن إن خلا البيت من زوجته وابنه، أو حتى من (دون أكويرونتيدو)، يكون على لوقا أن ينتظر وصول أحدهم، جالسًا على سلالم المدخل.